حبيب ، حتّام تسألنى عن هذه البواطيل وأزخرفها لك ، أما ترى الشيب قد بلغ فى لحيتك[1] ، وهذه « البواطيل » هى الأرجاز التى كان يقصده هو وغيره من أجلها ، لما اشتملت عليه من الغرابة والوعورة ، ولعل أهم ما يصور عناية الرواة بالرجز ما هو مشهور أيضاً عن الأصمعى من أنه كان يحفظ منه اثنى عشر ألفاً ، منها البيت والبيتان ، ومنها المائة والمئتان ، — وكذلك كان غيره مثله .

ويبدو أن شهرة الرجاز تعود فى جزء كبير منها — مع أنهم يوصفون فنياً بالضعف وقصر المكانة — إلى هذه العناية الفائقة التى أحاطهم بها اللغويون والنحاة ، إذ وجدوا فى رجزهم ما ينشدونه من « الغرابة والتوعر » مما يدل على الغاية الكبرى وهى « الأصالة والنقاء » ، فقصدوهم وترددوا إليهم ، وبادلهم الرجاز وداً بود ، فبالغوا فى « التوعر والحوشية » ، وكان منهم من يرحل للبادية لاكتساب تلك الملكة النفسية التى يقدمونها فى « رجزهم » عبارات تهدر وتصك المسامع ، ينالون بهـــا الاحترام المعنوى والمكسب المادى .

والنتيجة التى بين أيدينا من العرض السابق للفكرة تتلخص فى الآتى : « بدا الاعتماد على الشعر بكثرة فى كتب النحو ، وبدا إلى جوار ذلك ما يلى :

(أ) الميل إلى الغريب الوعر من الشعر أحياناً .

(ب) استخدام الرجز كثيراً فى مواضع « الإشكال والشذوذ والقدرة والاستدراك » .

فلماذا إذن كان هذا المسلك ؟ إن علماء النحو — رحمهم الله — أهمهم أن تكون مادة اللغـة التى يدرسونها « نقية أصيلة » ، وهذه النقاوة والأصالة

---

(١) بغية الوعاة ج ٢ ص ٣٦٥ .